عالمية الأدب ورهانات الأدب العربي

ط.د/ سعدي نوال

جامعة الجيلالي اليابس– سيدي بلعباس

العالمية مقياس يعتمد عادة لوسم أي عمل أو منتج بالنجاح والخروج به من دائرة المحلية والقومية إلى نطاق أوسع، وعلى ضوء هذا التمييز الأولي نحاول فهم وإيضاح "عالمية الأدب" كمصطلح تشوبه بعض الإشكالات في تحديد مفهومه والمعايير التي يعتمدها الدارسون لإعطائه هذه الصبغة.

ينسب عادة هذا المصطلح إلى "**غوته Goethe**" ويكاد يتفق الكثير على أنه أول من شق لهذا المصطلح وعزّز تواجده في الدراسات المقارنة والأدب عموما، ونادى بملء فيه في مناسبات عدة لترسيخ هذا المفهوم حيث قال:"إن كلمة أدب قومي لا تعني شيئا كبيرا اليوم، إننا نسير نحو عصر **الأدب العالمي**، ويجب على كل شخص أن يسهم في تسريع قدوم هذا العصر. ولكن مع تقدير كل ما يأتينا من الخارج، لا يجب علينا أن نضع أنفسنا في مقطورته، ولا أن نأخذه نموذجا..."[1]. وعلى الرغم من نشاطه الجمّ في سنيّ عمره الأخيرة للترويج للأدب العالمي وسعيه الحثيث لتأسيس هذا المفهوم، إلا أنه لم يقدم تعريفا جامعا مانعا له. ولا يمكن أن نغفل هنا النظرة المشوهة لعالمية الأدب في تلك الفترة فإن"سلسلة الروائع العالمية ظلت حتى ستينات القرن العشرين تحت تأثير المركزية الأوربيةEuro-centralism ،ولكنها أخذت تتسع بالتدريج لبعض الأعمال خارج نطاق الغرب، ربما بتأثير نمو التبادل الثقافي والتوسع في مفهوم الجوائز الأدبية العالمية"[2]، فالغرب بدأ ينظر بعين الاهتمام للآداب المحلية غير الأوربية ولو متأخرا، مع تقارب الزمن والمسافات وبحكم الماضي القريب المشترك بينه و بين مستعمراته مما جعل الاحتكاك مفروضا كنوع من التبادل الثقافي والسماح لهذه الآداب بالرقي للعالمية.

وقد تمخض عن هذا التضارب في مفهوم الأدب العالمي مفهومان رئيسان سائدان في أوساط الدارسين هما:

1- الأدب العالمي: مجموع آداب العالم.

2- الأدب العالمي: الأفضل والأكثر تداولا وجاذبية للقراء في آداب العالم.

ويعتبر **المفهوم الأول** مفهوما افتراضيا، أقرب إلى النظري منه إلى الواقع، إذ لا يمكن الإحاطة بآداب العالم كاملة لموانع عدة أهمها الصعوبة العملية الفعلية لجمع آداب العالم، وكذا انقراض لغات بأكملها، واندثار أعمال أدبية أو أجزاء منها، وتعتبر دراسة مجموع آداب العالم مهمة تقارب الاستحالة حتى على فِرق عمل كاملة أو أجيال منها إلا إذا اتخذوا منهجية تقريبية، تتسع لها أدواتهم لجمع القدر الممكن ووسمه بالعالمية، وهذا لا ينفي إمكانية الوصول إلى نقاط التقاء بين الدارسين من هذا الجانب اعتمادا على القيم الإنسانية المشتركة والفنية العابرة للغات والآداب. وتعتبر الترجمة المعبر الذي ينقل هذه الأعمال إلى العالمية على أنها تعتبر سلاحا نوعيا ومعيارا فذا وفي الوقت نفسه مطعون في موضوعيّتها، إذ أنّ الترجمة من اللغة الأصل إلى اللغة الهدف تخضع في حيثياتها إلى عوامل عدة وضغوطات جمّة ونظرات متفاوتة، حيث أن القيمة الأدبية للعمل أو النص الأصل وتأثيرها المحلي والقومي الأوّليّ وحتى مبتغى الكاتب قد لا تتقاطع مطلقا مع التأثير العالمي، "لأن كل كاتب هو ذات قبل كل شيء ولأن دراسة نتاجه هي قبل كل شيء، وخاصة، دراسة نفس. ولأن كل أدب يقدم عالما من المشاعر والتأثيرات، ومن المواضيع اللغوية والأسلوبية"[3]، فنجد

أن هذه القيم القومية القطرية قد تغفلها الترجمة في النص الجديد لاعتبارها محلية بحتة وتسليط الضوء على القيم الإنسانية المشتركة والتي قد يكون الكاتب مستهدفا إياها عرضا لا أساسا.

أما **المفهوم الثاني** بأن الأدب العالمي هو الأفضل، والأكثر تداولا وجاذبية للقراء، في آداب العالم. يأخذنا من الضيق الجغرافي إلى الاتساع العالمي، أي " خروجه من نطاق لغة أهله إلى آداب لغات أخرى ليرد منها ما يروي به حاجته، أو ليورد إليها من تياراته الفكرية والفنية ما به تروى"[4] ويسلط الضوء على الآداب العالمية بشكل هرمي يجعل من الذوق العام معيارا هاما يصعد بالنص من قاعدته المحلية إلى قمته العالمية، لكن هذا المفهوم كذلك يخضع لتجاوزات خطيرة بالنظر إلى معايير اختيار النصوص وترجمتها وتصديرها لقمة الهرم.

العوامل المساعدة لعالمية الأدب:

كي يكون الأدب عالميا لابد من أن يخضع لعوامل عديدة، تساعد على انتشاره وتبوئه المكانة المستهدفة، ويمكن تحديدها من خلال مايلي:

1- العوامل العامة: هي عوامل تساعد عادة على رفع الغبن والتقوقع على الآداب المحلية، ليس بصفة فنية بل باعتبارها عوامل تأثير وتأثر بعمومها. ومنها الشعور الذي ينتاب ذوي المواهب الناضجة هو الثورة على السائد والتقاليد التي تُقولب الأدب ولا تتركه ينمو بحركته الطبيعية لاعتبارات منها الاطلاع على القوالب والأنماط الجديدة والتي تراها هذه المواهب متنفسا يفتح آفاقا أخرى غير التي حدّهم بها أدبهم القومي. أما الهجرات كانت من بين العوامل المساعدة على تنقل الثقافات والآداب من خلال الاحتكاك والتعامل الآني بما يؤثر في الأدب المستقبل والمهاجر جدليا. وللحروب والغزو اليد الطولى في التفاعل والتأثير المباشر وغير المباشر بين آداب المتحاربين وحتى الأقوام التي خضعت للغزو خاصة في العصور القديمة. ولا يكاد يختلف اثنان على الدور الهام للوسائل الحديثة لنشر الثقافات من دور نشر ومطابع وإعلام والتكنولوجيات التواصل الحديثة، بما يسمح لمختلف الآداب بالسفر السريع عبر العالم بكيفية لم يسبق لها مثيل[5]، والوصول إلى منابع الثقافة والفكر التي كانت عقبة المسافات تَحُدُّها.

2- العوامل الخاصة: هي عوامل تقترب من كنه الأدب المقارن وتبين حقيقة التأثير والتأثر بين الآداب، لخصوصيتها بهذا الفن والتصاقها الوثيق به، وهي كالآتي:

أ- الكتب: تعتبر أهم وسيلة تجمع بين التأثير والانتشار، وفاتحا للشهية "للإلمام بالمعارف اللغوية التي تعرفها أمة عن أمة أخرى، مع شرح ما قد يكون لها من دلالات أدبية أو اجتماعية"[6] ، والإلمام بهذه المعارف يوضح عملية التأثير والتأثر في سياق التلاقح اللغوي بين اللغات من استعارة اللغة كلمات وحتى قوالب من لغات أخرى مما يثبت أن التقارب والتشابك في الأدب ينعش هذا الأخير لينطلق بصفة صحيّة نحو العالمية. وتتابعها الترجمة التي تعتبر بوابة ومنفذا للوصول إلى العالمية في أبهى الحلل، وقد بين التاريخ أهميتها القصوى حيث أن الكثير من الأعمال اشتهرت وعانقت العالمية بعد ترجمتها ولم تلق النجاح ذاته محليا " فقد لوحظ مثلا أن شكسبير لم يلق نجاحا لدى معاصريه من الأوروبيين، ولا لدى من جاء بعدهم، بقدر ما لاقى في القرن الثامن عشر بعد أن اكتشفه فولتير."[7] كما لا يمكن إغفال دور كتب النقد والصحف والمجلات المتخصصة، التي سعت ولا تزال إلى محاولة ربط الآداب المحلية ببعضها والتعريف بها وانتشالها من أعماق القطرية السحيقة، على أن هذه الوسائط قد شهدت تطورا هي الأخرى وأبدعت في بلورة مفهوم عالمية الأدب واتساع دائرته "وقد قام **فان تيجم** بدراسة أعداد المجلة الهولندية المسماة "

السنة الأدبية –L'année Littéraire" من عام 1754 إلى عام 1790 دراسة طويلة مقارنة في كتاب صدر له سنة 1917".[8] مما يؤكد أهمية هذه الوسائط في التعريف بالآداب المحلية وجذب اهتمام الدارسين لها ولفت الانتباه إلى نصوص ذات قيمة فنية عظيمة كانت لتُدفن في مقبرة المحلية. وفي الأخير نثمن كذلك دور أدب الرحلات الذي فسح المجال للتلاقح الفكري والثقافي ونقل صور الأمم والقوميات إلى الآخر حتى وإن شوهت الصورة تبقى ذات أهمية ونافذة تظهر فيها الشخصية العامة لهذه الأمم.

ب– المترجمون والوسطاء: أما المترجمون دورهم يكون لاعتبارات مثل قوة حضورهم في ميدان الترجمة، فالمترجم المشهور ينتظره القارئون والنقاد والمقارنون على عكس المترجم الأقل شهرة ومن هنا أهميتهم في تعبيد الطريق للآداب إلى العالمية لمجرد ذكر أسمائهم، مثل "ترجمة الشاعر الإنجليزي **فيتز جرالد** لرباعيات الخيام، وتعبيره عن أفكاره هو، وعن روح القرن التاسع عشر الإنجليزي والأوروبي، وبهذه الترجمة راجت هذه الرباعيات في أدب أوروبا و أمريكا"[9] فيتضح من هنا شهرة المترجم وقدرته على إضفاء صبغته الخاصة ومن ثم الانتشار الكبير لهذه الرباعيات في أوروبا عموما. والوسطاء هم أشخاص يتمتعون بالحضور القوي والثقافة الواسعة بحيث تجد لهم أثرا كبيرا في حركية الآداب المحلية في محاولة لجذب الانتباه لها من منظور ذوقي وحتى نقدي ومدى أهميتها، ولا يكون هذا إلا من خلال هذه النخبة من الوسطاء. مثل: **فولتير** الذي استطاع إعادة اكتشاف "**شكسبير**" وتقديمه للقارة الأوربية وذلك لرسوخه وطول باعه في الأدب والثقافة، وحضوره القوي كشخصية وازنة. ويزيد عليه كوسطاء المجتمعات والنوادي الأدبية التي تعتبر مكانا صحيا لتشع منها الأعمال الأدبية لمختلف التيارات والثقافات، حيث يحضر فيها عاملي التأثير والتأثر وبشكل ملحوظ، وتساعد في استقطاب الوسطاء "ففي القرن الثامن عشر روجت النوادي الأدبية في فرنسا لتأثير الأدبين الإنجليزي والألماني في الأدب الفرنسي "[10] وها هنا أهميتها كعامل لانتشار الأدب بين الشعوب ومن ثم للعالمية.

الأدب العربي والعالمية:

على ضوء ما سبق، وبالنظر إلى التسارع والتسابق نحو العالمية وملاحقتها من كل الآداب القومية حتى تضيف صبغتها للأدب العالمي، يمكن أن نقول أنّ للأدب العربي حظ لا يستهان به في إثراء المكتبة العالمية، على الرغم من الصعوبة التي تحول دون ذلك، ومن هنا وجب تتبع مسار عالميته منذ إرهاصاتها، إذ يعود هذا الاحتكاك إلى العصر الجاهلي وبحكم الموقع الاستراتيجي الذي "انفردت به الصحراء العربية بين صحاري العالم أجمع بأنها أحيطت منذ القدم بأرقى حضارات العالم القديم"[11]، كالكنعانية والمصرية والفارسية واليمنية وغيرها، هذا التموضع ساعد على نشوء بعض الاحتكاك الذي كان أقوى من الطرف الآخر "ومهما يكن من أمر فإن أصحاب الأدب العربي في هذه الفترة لم يكوّنوا من أنفسهم وحدة متماسكة بحيث يستطيعون بسببها أن يؤثروا في جيرانهم ولكنهم على العكس من ذلك قبائل متنافرة، تقضي حياتها في صراع وتطاحن من أجل البقاء، أضف إلى ذلك أن أدبهم صورة صادقة لحياتهم وبيئتهم يعبّر عن مثلهم وقيمهم وعاداتهم وتقاليدهم، ومن ثم فقد كان من الصعب على غيرهم من الأمم تذوقه والتأثر به"[12]، ومع التطور السياسي الذي شهدته الجزيرة العربية، وبروز النواة الأولى لحضارة ستبسط ثقلها على سطح هذه البسيطة بنزول الوحي، استطاع الأدب العربي أن يبدأ رحلة مشوقة نحو فرض وجوده على الأقل إقليميا، خصوصا في العصر العباسي أين تداخلت الثقافات المجاورة للعرب من خلال انتشار الإسلام، وتتابع الفتوحات الإسلامية التي كانت تصهر في بوتقتها و تمزج الثقافات من خلال "اختلاط ، قتال وحروب ومعارك أولا، ثم اختلاط حضارة وثقافة وأفكار بعد ذلك ومن هنا كان

التفاعل والإخصاب وكان الأخذ والعطاء"[13]. تمازجت فيه روح هذه الثقافات وانتجت أدبا عربيا توسع شكله ومضمونه في قالب اللغة المهيمنة على معظم العالم في تلك الفترة، وبروز أنماط وأشكال لم يعرفها الأدب العربي من قبل، كفن المقامات لبديع الزمان الهمذاني، والقصص الخيالية على لسان الحيوان، ككليلة ودمنة لابن المقفع.

اعتبرت الأندلس منارة لتفعيل هذه العالمية بعد أن أصبحت مهدا للحضارة في بوابة أوروبا، وقد تبين الأثر البالغ الذي وسمت به الأندلس الثقافة العالمية من خلال جمعها لكل الطوائف والإثنيات تحت حكم ذوّاق للعلوم والآداب، سمح لحركة التفاعل والتنافس أن تنتج أعمالا نوعيّة وراقية، مثل الموشحات الأندلسية كنمط جديد من الشعر كسر التقاليد العامة له وسمح للتزاوج بين فن الشعر وفن الغناء، ونظرا لقوة اللغة العربية التي تعتبر من اللغات السامية جعلتها تتبوّأ مكانة لا تدانيها كل اللغات السامية الأخرى ولا يمكن إلا أن نشهد أنها " من أرقى لغات العالم فهي تمتاز حتى على اللغات الآريّة بكثرة مرونتها وسعة اشتقاقها"[14].

بعد هذا التلاقح الفكري بين الثقافات العالمية مع الأدب العربي وثقافته العرب–إسلامية، نتج عنها خروج الأدب العربي من الصحراء القاحلة والبداوة الغارقة في نكران الآخر إلى عالم يجمع أقصى شرقه بأقصى غربه في إمبراطورية عظمى، أصبح تأثير آدابها بالغا، جعل الأوربيين يتسابقون في بداية نهضتهم إلى هذا الكنز والبحث فيه ودراسته، حتى اشتهرت قصص تبين هذا التأثير البالغ للأدب العربي على عظماء الأدب العالمي في أوروبا آنذاك، حيث أنه بعد ترجمة ألف ليلة وليلة والتي كانت عبارة عن تراث شرقي مسموع تناقلته الألسن من قصص هندية وفارسية وعربية، ومدى افتتان "**فولتير Voltaire**" بها، إذ لم يكتب فن القصة حتى قرأها مرات عدة، وكذلك "**فيكتور هوجو Victor Hugo**" الذي كان من المعجبين بالأدبين العربي والفارسي، مع ميوله البارز للعربي لثرائه وقوته وفنيّتِه. على أن هذه العالمية اتضحت أكثر من خلال الجدالات الفكرية التي دارت في تلك الحقبة حول أصالة بعض الأعمال الأوربية التي يقال أنها استلهمت روحها من الأدب العربي، مثل الكوميديا الإلهية لدانتي، ودون كيشوت "**لميجال سيرفانتس**" فقد غلب عليها الطابع الشرقي بما لا يدع مجالا للشك في أن سيرفانتس قد تأثر فيها بالأجواء الشرقية. وبعض العلماء يرى بأنها كتبت في الأصل باللغة العربية وكان كاتبها عربيا اسمه سيدي حامد بن الجيلي"[15]، وإن دلّ هذا على شيء إنما يدل على مكانة الأدب العربي وتأثيره في الآداب الغربية في العصر الحديث.

يصارع الأدب العربي المعاصر على الوجود العالمي، خصوصا أن البيئة العالمية ليست بتلك الحفاوة المرجوة والاستقبال الموضوعي له، ومما ساعد على هذا التواجد، حركية الترجمة التي بادرت إليها بشكل منظم، ترعاه الحكومات كمصر التي شهدت بعد أربعينيات القرن الماضي ثورة في هذا المجال، ولم تكن الترجمة إلى اللغات الفرنسية والانجليزية فحسب على اعتبارهما أهم اللغات و لكن تعدتها إلى الألمانية والإيطالية والروسية، فكانت تشكل دفعا قويا نحو افتكاك مكانة و حيز لأدبنا في الساحة العالمية[16]، ونظرا للتأثر العربي بالأدب الغربي والعالمي عموما والعمل على محاكاته والتركيز على القيم الإنسانية التي اعتبرت من القيم التي تمسح الحدود وتأخذ النص من بوتقته المحلية إلى شعلته العالمية، نجد أهم من ساعد في هذه الحركة وعمد على فتح المجال العالمي: أحمد شوقي، شوقي ضيف، طه حسين، عباس محمود العقاد...الخ، و كذلك لا يمكننا إغفال دور أدباء المهجر في صقل هذه التجربة وإعطائها بريقا عالميا على غرار إيليا أبي ماضي، جبران خليل جبران وميخائيل نعيمة، الذين استطاعوا أن يعصرنوا ويمزجوا الأدب العربي مع روح العصر، من خلال احتكاكهم المباشر مع الثقافة الغربية، جعلت الأدب العربي يتنفس هواء جديدا يجعله يتخذ موقعا يفرض الاحترام.

لا يمكن القول أنّ الأدب العربي المعاصر لم يرق للعالمية كما لا يمكن الجزم بأنه متواجد بشكل دائم، فبالعودة إلى النظرة التي توليها الصحافة العربية لبعض الأعمال التي على قلتها تجعلك تظن أن الأدب العربي وصل إلى قمم شاهقة " إذ تقوم الصحافة الثقافية العربية بتلقّف أخبار صدور تلك الترجمات وتبرزها كأنها فتوح ثقافية خارجية، ودليل ملموس على الأدب العربي قد دخل مرحلة العالمية"[17]. فالعالم الآن غربيٌّ بامتياز، نظرا للسطوة العلمية والسياسية والقوة الاقتصادية والعسكرية له وعالمنا العربي في حكم التخلف في هذه المجالات كلها، ونحن نجد أدباء من أصول عربية وصلوا للعالمية من باب اختيار لغة القوي، كالفرنسية والانجليزية، وهنا نشأ الصراع حول تصنيف أدب هؤلاء فهم يكتبون بروح عربية وثقافة محلية ولكن بلغة الغرب، كمحمد ديب والطاهر بن جلون وآسيا جبار. الهوية شرط أساس لفهم الأدب ومع ذلك وقع المحظور ونظرا للتراكمات التاريخية نجد مثلا أن الأدب المغاربي يعاني أزمة هوية رغم تواجده المتواتر على الساحة الدولية.

العالمية هدف سام تسعى له الآداب المحلية، وحركية الأدب العربي أعطته فرصا عدة نظرا لخصوصيته ومرونته، وأهم ما يمكن أن يساعده في هذا المجال هو الاهتمام باللغة العربية وتطويرها وبعث الروح فيها من جديد لا التغني بقوتها في العصور السابقة، وقوة الآداب العالمية عادة ما ترتبط ارتباطا وثيقا بقوة المُنتج لها سياسيا واقتصاديا وعسكريا وعلميا، لا يمكن التنصل من هذه الحقيقة، ومن ينظر إلى أمريكا في هذا العصر والتي تمتلك أقوى منظومة للسينما العالمية، تجعلها سفيرا لكل أعمالها الأدبية. ناهيك عن مكانتها السياسية والعسكرية والاقتصادية، يفهم العلاقة الوطيدة بين الحضور العالمي لأدبها وقوتها في الميادين السابقة الذكر.

الهوامش:

1- دانييل هنري باجو، الأدب العام والمقارن، تر: غسان السيد، اتحاد الكتاب العرب، دمشق، سوريا، د، ط، د، ت، ص 29.

2 – عماد علي سليم الخطيب، في الأدب الحديث ونقده عرض وتوثيق وتطبيق، دار المسيرة للنشر، عمان (الأردن)ط1، 2009، ص 168.

3- بول فان تيغم: الأدب المقارن، تر: سامي مصباح الحسامي، منشورات المكتبة العصرية –بيروت، لبنان. د.ط، د.ت، ص147.

4- غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار النهضة، مصر، ط9، 2008، ص:103

5- ينظر المرجع السابق: ص: 101-102.

6- غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار النهضة، مصر، ط9، 2008، ص:103

7- المرجع نفسه، ص: 109

8- المرجع السابق، ص: 110.

9- المرجع السابق نفسه، ص: 112

10- غنيمي هلال، الأدب المقارن، دار النهضة، مصر، ط9، 2008، ص: 116.

11- محمد عبد الرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربي، دار عويدات، بيروت، باريس، ط 2، 1983، ص:163.

12- عثمان موافي، التيارات الأجنبية في الشعر العربي منذ العصر العباسي حتى نهاية القرن الثالث الهجري، دار المعرفة الجامعية، الأزريطة، مصر، 2006، ص: 411.

13- محمد عبد الرحمن مرحبا، أصالة الفكر العربي، ص:164.

14- أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، لبنان، ط1، 2005، ص:197.

15- طه ندا: الأدب المقارن، دار النهضة العربية، بيروت، لبنان، د ط، د ت، ص: 255.

16- شوقي ضيف، الأدب العربي المعاصر في مصر، دار المعارف، ط15، 2011، ص: 29.

17- المرجع نفسه، ص: 74.